

مبادئ التشيع في الأدب الموحي

• محمد بن تاووت^(١)

في الأحاديث التي ادعتها سنوات ٥٧، ٥٨، ١٩٥٩، عن الأدب المغربي، قلت بعد أتياني بنماذج من شعر أبي حفص السلمي - ما يلي بنصه:

"ومن هذه الأبيات وغيرها من الشعر الذي قيل في هذا العصر، ندرك أن الأدب المغربي، دخل فيه عنصر - ولو أن الفكرة فيه لم تكن غريبة عن المغرب نفسه، فيما قبل، منذ العبيدين ولربما منذ الإدارة الأولى، إلا أن الأثر الأدبي، لم يسجل لنا شيئاً عن ذلك من ذي قبل - هذا العصر هو مبدأ الشيعة والاسماعيلية منها بالخصوص، في مسألة الخلافة، وأن صاحبها معين بالعين أو بالوصف، وأنه الامام المعصوم المعلوم، كما نجده في رسالة الموحدين، ويختص هذا الامام بالصلاة عليه، كما يصلي على النبي عليه السلام، وكما نجده في نهاية هذه القصيدة، التي ينهيها بهذه الأبيات:

يا سامعين اماديج الامام الا	فاجثوا على الركب الاعظام أو قوموا
خذ كأس لفظي دهاقا من مدائح	فيها الحقائق لا لعو ولا تائم
ندعو له بدلا من مدحه لقصو	ر المدح عنه وفيه العذر معلوم
عز الامام فلا تضرب به مثالا	من ذا يقاس به والمثل معدوم

(١) محمد بن تاووت الطنجي (١٩١٨-١٩٧٥) أحد أبرز الباحثين المغربية درس في فارس (بالفرويني) واشتغل في التعليم بتطوان، عمل استاذا بكلية الالهيات بانقرة (تركيا)، وله اشتغال بالفقه وخبرة كبيرة في المخطوطات ومما حققه ونشره كتاب شفاء السائل لتهذيب المسائل لابن خلدون (اسطنبول ١٩٥٧) وكتاب نهايات الاماكن لتصحيح مسافات المساكن للبدوني (انقرة ١٩٦٢) وكتاب جذوة المقتبس في ذكره ولاية الاندلس (القاهرة ١٩٥٢) وغيرها.

أعطى الورى فضل ما أعطاه خالقه عليه من ربه بشرى وتسليم
صل بالصلاة عليه صدق مدحته ذاك الرحيق بهذا المسك مختوم
وهكذا نجده بأمر بالصلاة على ممدوحه الموحدي، وهو التقليد الذي عرف بين الشيعة.
نعم: قلنا هذا وكنا أول القائلين به، كما سنكون أول القائلين بمثله، في غير هذا الأدب
الموحدي.

ولنعد إلى هذه القصيدة التي مدح بها أبا يعقوب يوسف ابن عبد المومن، والتي افتتحها
بقوله:

الله حسبك والسبع الحواميم	تحوي بها سبعة وهي الاقاليم
سبع المثاني التي لله قمت بها	عليك من سرها معني وتقلم
وانت بالسور السبع الطوال على	كل الورى حاكم بالله محكوم
وسبعة الشهب لم تحفل بها ثقة	بوعد ربك هيهات التناجيم
تسمو بنفس على السبع الشداد سميت	فينا وثم لها زلفى وتحكيم

فقد سبق كذلك أن قلنا تعليقاً على هذه الأبيات:

"وبعد ما يستمر في ذكر السبع من السموات والشهب والأيام ويستعمل كل ذلك
بمهاراة، في مدح مخدومه، ويطنب في أوصافه بالعدل والاستقامة، يصفه بهذه الأوصاف
فيقول:

فؤاده بضياء العلم منشرح	ووجهه بجمال النور مرسوم
وكفه بطنها بالخير منهمر	وظهرها لعهود الله ملثوم
العلم قيمته والحلم شيمته	طابت أرومته والنفس والخيم..

هذا ما قلناه في هذا الصدد، وكنا أول من تعرض لهذا الأديب بالدرس، على أنه من
أدباء العرب البارزين، ومن قبلنا أهمل ذكره: لا لأنه أديب تافه، بل لأن الشقندي فاجر به
أبا يحيى ابن المعلم الطنجي، على أنه أندلسي قرطبي لا يمكن أن يجود به المغرب، كما قلنا
في ذاك الحديث. وبذلك انصرف عند دارسو أدبنا، إلى أن طلع علينا صديقنا العلامة
الجليل سيدي عبد الله كنون، بالحلقة الثلاثين، التي نشرت في بيروت، سنة ١٩٦١ أو
١٩٦٢. لقد علق الأستاذ كنون، على الأبيات السبعة بقوله:

فهذا المطلع كما ترى كله مقارنات يستعملها الشاعر على طريقته، فيستخرج منها
معاني أشباها في ألفاظ أشبه تأنقا في التعبير وتفننا في التصوير، ولعله إنما ضمنه هذه

التعبيرات التي سلكها على نسق، لمناسبة لم يذكرها لنا رواة القصيدة" هكذا وقف الأستاذ كنون عند هذه "السبعيات".

والواقع أن لها خطورة خاصة عند الشيعة الاسماعيلية بالخصوص، إذ العدد "سبعة" يعتمد عليه هذا المذهب اعتماداً كلياً ويعتبره سرّاً من أسرار الباطنية. فهم على هذا العدد الخفي "سبعة" ينون مذهبه القائل بأن هناك سبع فترات للأنبياء والرسل هكذا:

آدم، نوح، ابراهيم، موسى، عيسى، محمد. (عليهم الصلاة والسلام) محمد بن اسماعيل (المنسوب إليه المذهب) كما يزعمون. وبين كل نبي فترة، يملأها سبعة من الائمة، فبعد النبي عليه السلام، علي، فابنه الحسن. فابنه الحسين، فابن هذا علي الملقب بزين العابدين، فابنه محمد الباقر، فابن هذا جعفر الصادق، فابنه اسماعيل.

وباسماعيل هذا بلغت الفترة السادسة نهايتها، ثم جاء دور ابنه محمد الذي سيعقبه كذلك سبعة من الائمة، أولهم ابنه جعفر المصدق، وثانيهم ابنه محمد الحبيب (والد عبيد الله المهدي كما قيل). على أن كل سبعة من هؤلاء الائمة يعقبه اثنا عشر نقيباً.

وقد أثر عن محمد الباقر أن الاسلام بني على سبع دعائم: الولاية، وهي أفضلها، والطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد.

ولهذه الدعائم في التأويل الباطني أمثال: فالولاية مثلها آدم، لأنه أول من افترض الله ولايته، وأمر الملائكة بالسجود له. والسجود والطاعة، ولم يكلفهم غير ذلك، فسجدوا إلا ابليس. فلا بد لجميع الخلق من اعتقاد ولايته، ومن لم يتوله لم تنفعه ولاية من بعده، لأن الله أوجب ولايته، فكان أصل رسله وأنبيائه وائمة دينه.

والصلاة مثلها ابراهيم، فهو الذي بني البيت الحرام، ورفع المقام، فجعل الله هذا البيت قبلة، والمقام مصلى، وقال ابراهيم "اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين".

والزكاة مثلها موسى، فهو أول من دعا إليها وأرسله الله بها، فقال تعالى "وهل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى اذهب إلى فرعون أنه طغى فقال هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتحشى" فكان أول ما أمره به الدعاء إلى أن يزكى.

والصوم مثله عيسى لأنه نادى أمه: "من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً، وهزي إليك الجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً، فكلي واشربي وقري عينا، فأما ترين من البشر أحداً فقولي أني نذرت للرحمن صوماً" وبذلك يكون أول من دعا إلى الصوم، كما أنه كان يصوم دهره، ولا يأتي النساء، شأن الصائم الذي لا يجوز له اتیانهن وهو صائم، بل كان لا يجوز للصائم قبل الآية الناسخة، اتیانهن ليلة الصيام، وكان عيسى صوام

الدهر، كما سبق. والحج مثله نبينا محمد عليه وعلى الأنبياء الصلاة والسلام، فهو أول من أقام مناسك الحج، وسن سننه كما هي، وكانت العرب فيما قبل تحج إلى البيت الحرام، وتطوف عنده، ولكنها لا تقيم شيئاً من مناسك الحج، بل كان طوافها كما حكاها الله تعالى: "وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية" فكانوا يطوفون عراة يصفرون ويصفقون، فنهى عن هذا النبي عليه السلام، فقال في العمرة التي اعتمرها قبل فتح مكة، وقد وادع أهلها المشتركين "لا يطوفن بعد هذا البيت عريان ولا عريانة" وكانوا قد نصبوا حول الكعبة أصناماً يعبدونها، فلما فتح مكة كسر تلك الأصنام، وسن سنن الحج ومناسكه وفرض فروضه بأمر الله تعالى، فكان الحج خاتمة الأعمال المفروضة، فلم يبق بعده من دعائم الاسلام غير الجهاد وهو مثل طابع الائمة، الذي هو صاحب القيامة. ومما تجدر ملاحظته أنهم اختلفوا في هذا القائم، فمنهم من يجعله اسماعيل كما تقدم، فيكون ابنه خلفاً له بعد موته، ومنهم من يجعله محمد بن اسماعيل، ويسقط اسماعيل هذا. وعلى كل فإن العدد سبعة، وقف عنده هؤلاء القوم، والتمسوا له ظاهراً وباطناً، وفرعوا عليه فروعاً، وكانت أسئلتهم هكذا:

لم خلق الله السموات والأرض في سبعة أيام؟

لم جعل الله السموات سبعا طباقاً؟

لم جعل الله الأرضين مثلهن سبعا؟

لم جعل البحار سبعا؟

لم جعل لجنهم سبعة أبواب؟

لم جعل الله المثاني من القرآن سبعا؟

لم جعل في عنق الإنسان سبع فقرات؟ وجعل في ظهره اثني عشر فقرة!

ما ذلك إلا لأن السبع تحمل الرأس، فهي الائمة تلي النبي، تساعدوا الاثني عشر نقيباً،

ترمز لها الاثنتا عشرة فقرة.

فهذه قصة السبعية عند الشيعة، ولا شك أن أبا حفص تومئ إليها ويلم بها الماما مبهما في من غير ما يدخل في تفاصيلها، التي نبرئ منها قاضينا الشاعر، لأنها غلو يفضي بصاحبه إلى الالحاد، في نهايتها. وإذن فليس امعان شاعرنا في سبعة، قائماً على مجرد الاستقلال أو الاستقراء الفني، أو التوليد القائم على التداعي، لأن ما بأيدينا من شعر القاضي ونثره لا يطلعنا على هذه الوتيرة من المقارنات التي يستعملها ليستخرج منها معاني أشباهها في ألفاظ كذلك، لجرد التأنيق في التعبير والتفنن في التصوير.

وقصة المهديوية و"السبعية" عرفها المغرب من قبل ما عرف دولة الموحدين بنيف وأربعة قرون، فلقد استغل هذه الدعوة البرغواطيون، بل استغلها أولهم صالح بن طريف أوائل

القرن الثاني، وذلك أنه حينما فارق المغرب عام ثمان وعشرين ومائة، كان فيما وعد به ابنه الياس أنه يرجع إلى المغرب في دولة "السابع" منهم، وأنه المهدي الذي يقاتل الدجال، وأن عيسى سيكون من جنده، ويصلى خلفه، فلما كانت دولة السابع منهم وهو اليسع بن اسماعيل، في منتصف القرن الخامس جعل ينتظر ظهور جده صالح في حماس وإيمان بالغ. ومع هذا فإننا لا ندعي أن ابن تومرت، وقد استفاد من نظام الاسماعيليه ومنطقهم في الامامة، كان اسماعيلياً، مائة في المائة، كما يقولون - بل أنه استفاد من هذا إلى حد، وكان واقعاً في تنظيم طبقات رجال، فالعشرة المهاجرون، نظم فيهم، بعد الأمر الواقع إلى المهاجرين العشرة، من الصحابة، ولم يجعلهم اثني عشر نقيباً، وحتى لو جعلهم كذلك، لوافق موسى قبل أن يكون موافقاً لهؤلاء الشيعة، كما أن السبعين في طبقة الثالثة، كانت بعد الواقع أيضاً، متابعة لموسى الذي اختار من قومه سبعين رجلاً.

وكما استفاد من هذا كله إلى حد ما، فإنه استفاد كذلك من هؤلاء الباطنية، تلك الصرامة، التي لم تكن تتورع في إراقة الدماء وازهاق الأرواح، آخذة بالظنة، ومستعملة تلك الحيل التي كان يستعملها مثلها "الحشاشون" في الشرق، وكان ابن تومرت قد خبر من شؤونهم، حينما كان بالشرق، فسمع عنهم أو اتصل ببعضهم، إذ كانوا منبئين آنذاك في كل مكان.

ومهما يكن، فهذا لا يعيننا الآن، بقدر ما يعيننا تفسير "السبعية" في شعر أبي حفص السلمي، تفسيراً يقوم على فكرة شيعة، كما وجدنا ذلك في شعر ناصر خسرو الاسماعيلي ومثنويات نظامي الكنجوي.

وللتصوف علاقة التشيع، وكذلك انتهى شاعرنا وقاضينا السلمي إلى هذا التصوف، كما قلناه في الحديث الثامن من أحاديث الأدب المغربي، التي أذيعت سنة ١٩٥٧. ولأمر ما كان محيي الدين بن العربي يتمتع بكثير من التقديس بين رجال الشيعة في إيران.

على أن هناك حقيقة لا بد من ذكرها، وهي أن التشيع لم يتنافس تنفساً ما إلا في أدباء البلاط، وعلى رأس هؤلاء السلمي، أما غيرهم فلا. والقصيدة التي أوردها صاحب المعجب في رثاء محمد بن تومرت، لا تمثل التشيع بمعالمه الواضحة بل تشير إشارات إليه تقوى جداً عند فكرة المهدوية بالخصوص، ولم يرد صاحبها أن يظهر بها كما قيل، وتنسب إلى رجل من الجزائر.

هذا ما يتصل بالشعر، أما النثر فكان أقوى ترديداً لفكرة الشيعة في الامامة والمهدوية، على عكس ما سنرى فيما بعد إن شاء الله عند تعرضنا للتشيع في الأدب السعدي، فإن الشعر فيه كان أنطق وأفصح بهذا الأمر...

